الشيخ نجم الدين داية المتوفى ٦٥٤هـ وأساليبه فى تفسيره

" بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني"

☆ الأستاذ الدكتور الحافظ عبدالرحيم

☆☆ الدكتور سيد مقبل حسين

Abstract

In this article, a life sketch of Sheikh Najmuddin Abdullah Bin Muhammad Al Asadi known as Daya and an introduction of his book "Tafseer Bahrul Haqaeq wal maani Fi Tafseer il Sabil Mathani" is given. He was a great Scholar, Muhaddis, Muffassrr , Hafiz -Quran, and a good poet too. He was also great source of spiritual inspiration. He was one of the special devotees of Sheikh Najmuddin Kubra. This above mentioned tafseer comes in the category of Ashaari Tafser. This article tells about the Characteristics and Method of Bahrul haqaeq walma'ani fi tafseer al sabia al-masani. The Features of Tafseer Bahrul haqaeq interpreted in terms of style and integrated processing three-dimensional (Scientific, Mystical and Symbolic).The style of this tafseer resembdes with styles of Sheik Najmuddin Kubra in "At tawilat an Najmiya and Al-Qushairi's style in his tafseer "Lataef-ul-Isharat" This Tafseer of Najmuddin Daya is totally matchless when it comes to Lataef, Isharat and explanation of Secrets of Quraan.

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان والحمد لله الذيأنزل القرآن هداية للناس ومرجعاً لهم في جميع حاجاتهم ومشاكلهم وبينات من الهدى والفرقان،ويصلي على نبيه وصفيه حبيبه محمد مصطفى سيد الأولين والآخرين وأشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وعترته المتفرعين من نبعته وأصحابه المنتجبين۔

أمابعد فإن علم التفسير أشرف العلوم وأعز من سائر الفنون لأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ولإدراك المسائل الفقهية رأس المباني وأمها۔وإنما اشدت الحاجة إليه لأن كل كمال ديني أو دنيوي لابد من أن يكون موافقاً للشرع وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله۔قد التفت أكثر الناس من أهل العلم والمعرفة في كل عصر من العصور على تفكير وتدبر معاني القرآن وتوجهوا نحو التفسير على وجه الشريعة تصنيفاً وتأليفاً۔

كان كتاب"بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني"أجلّ ما صنف في هذا الباب من مئولفات نخبة أولي الألباب العارف"الشيخ نجم الدين عبدالله بن محمدالأسدي الشهير بـداية " المتوفي ٦٥٤هـ ،يُعد هذا

☆ رئيس قسم اللغة العربية ،جامعة بهاء الدين زكريا ملتان۔

☆☆ باحث مترجم

الكتاب من أهم الكتب التفسير الإشاري وفي بيان الإشارات والرموز القرآنية لا ثانية له۔

التعريف بالمفسر:

هو الشيخ نجم الدين عبدالله بن محمد بن شاهاور بن أنو شروان الأسدي الرازي المعروف بنجم الدين داية۔ كان محدثا حافظاً' وصوفياً' شاعراً وُلد في بلاد خوارزم سنة ٥٦٤هـ۔(١)

كان مقيماً ببلاد خوارزم ثم خرج عنها في أيام غزو جنكيز خان لبلاد الروم۔ ويقال :إنه استشهد في تلك الحروب(٢)

من مشايخه الشيخ نجم الدين الكبري' صدر الدين القونوي وأبو الجنان البكري۔(٣) توفي نجم الدين داية ببغداد سنة ٦٥٤ هـ و دُفن فيه(٤)

آثاره:

قد ترك عدداً كبيراً من المؤلفات أبرزها كتابه الذي ألفه في تفسير القرآن الكريم وسماه "بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني" وله أكثر من مائة رباعية شعرية بالفارسية بعنوان "التمثل"(٥)

من مؤلفاته أخرى:

كشف الحقائق و شرح الدقائق

معيار الصدق في مصداق العشق

منارات السائرين ذكر فيه انه التمس منه بعض أصحابه تأليف كتاب في شرح مقامات العارفين شاملا لكرامات الساكين جامعا لمنازل السائرين وانى وان كنت قد صنف قبل هذا بنيف و ثلاثين سنة كتاب مرصاد العباد ولكنه مؤلف بالعجمية وقد حرم من فوائده اهل العربية فأردت ان يكون هذا مؤلف بالعربية وجعله على فاتحة و خاتمة ووضع للمقامات عشرة أبواب(٦)

مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد مطبوعة فارسى جعله على خمسة أبواب فيها أربعون فصلاً كلها في السلوك والوصول وتربية النفس أتمه في أول رجب سنة ٦٢٠ عشرين و ستمائة ببلدة سيواس الباب الأول في ديباجة الكتاب والثاني في المبدأ والثالث في المعاش والرابع في المعاد والخامس في السلوك والطوائف المختلفة' وترجمه قاسم بن محمود القراحصارى في عصر السلطان مراد بن محمد خان وسماه "ارشاد المريدين الى المراد في ترجمة مرصاد العباد"(٧)

منهج الشيخ فى تفسيره:

"بحر الحقائق والمعاني فى تفسير السبع المثاني"

سار الشيخ نجم الدين داية فى تفسيره على منهج معين و هو تناول الآيات آية اية دون أن يتخلى عن أي واحدة إلا نادراً، ثم يشير إلى ما تنطوي عليه من إشارة خفية أو معنى لطيف و ربما ذكر اللفظة واللفظين من الآية۔

وهكذا إيراد الشعر الذي يدل على مواجيد الصوفية وأحوالهم و معانيهم سواء أكان هذا الشعر للصوفية أم كان لغيرهم، ويذكر الأحاديث المناسبة بمقام شرح بعض الآيات و يربط بين الآي بعضها ببعض۔

و ذلك بأسلوب متين والسهل ولا يتكلف التعمق، إنه يأخذ من الآيات ما يعتقد أنها تتضمنه على سبيل الإشارة والإيحاء إليه من المعاني التي يستسيغها العقل ويجد فيها الصوفي ما يتفق مع نزعته وإشراق كلام اللّٰه في قلبه بشتى المعاني والإيماءات۔

من خصائص التفسيرة:

من الناحية الروحية والسلوكية يشتمل هذا التفسير على كثير من الإرشادات والتنبهات والدروس التربوية الدقيقة، ويتميز هذا الكتاب بما يلي:

١۔ تفسير القرآن بالقرآن:

يفسر الشيخ القرآن بالقرآن والقرآن يفسر بعضه بعضا بمعنى أنه يورد مصطلحات قرآنية فى تفسير كلمة من الكلمات الواردة فى القرآن، وفي ذلك هو ذهب مذهب التفسير الرمزي والإشاري كما نجد في التفسير مثلا:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢)

تحقيقه أن الماء هو القرآن، و ثمراته: الهدى والتقى والنور والرحمه والشفاء والبركة واليمن والسعادة والقربة والحق واليقين والنجاة والرفعة والصلاح والفلاح والحكمة والموعظة والحلم والعلم والآدب والأخلاق والعزة، والغنى والتمسك بالعروة والوثقى والاعتصام بحبل اللّٰه المتين وإجماع كل خير وختام سعادة وزهوق باطل الوجود الإنسانى عند مجيء تجلي حقيقة الصفات الربانية كقوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١)، فأخروج بماء القرآن هذه الثمرات من أرض قلوب عباده فكما أن اللّٰه مُنَّ على عباده بإخراج الثمرات و قال: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُم﴾ (البقرة: ٢٢) و كان للحيوانات فيها رزق بتبعية الإنسان كما قال: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات: ٣٣)

فهذا إن كلمة (الماء) تَمّ إعتبارها كرمز يرمز إلى القرآن بما ينتج من نزوله من الثمرات المعنوية المذكورة أعلاه۔

٢۔ تفسير القرآن بالأحاديث النبوية:

يفسر المؤلف القرآن بالأحاديث النبوية، و نقدم نماذج من تفسيره بهذا الخصوص مثلا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُوْلُ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ۔﴾ (البقرة: ٨)، إشارة إلى أهل الغفلة والنسيان من المسلمين يظنون أنهم مؤمنون حقاً وإنما هم يؤمنون حقاً وإنما هم يؤمنون باللسان والتقليد وهم يحسبون أنهم آمنوا بالتحقيق، فما هم بمؤمنين حقيقة بل هم مسلمون كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوْا وَلَكِنْ قُوْلُوْا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوْبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤) والإيمان الحقيقى نور إذا دخل القلب فيظهر على المؤمن حقيقة، كما يتضح مما جرى فى قصة حارثة لما سأله رسولا للّٰه: "كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟" قَالَ: أَصْبَحْتَ مُؤْمِنًا حَقًّا، قَالَ: " انْظُرْ مَا تَقُوْلُ إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيْقَةً، فَمَا حَقِيْقَةُ إِيْمَانِكَ؟ " قَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُوْنَ فِيْهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيْهَا، قَالَ: يَا حَارِثَةُ، عَرَفْتَ فَالْزَمْ"۔ (٨)

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِيْنَ آمَنُوْا قَالُوْا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِيْنِهِمْ قَالُوْا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُوْنَ اللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ﴾ (البقرة: ١٤، ١٥) والإشارة فى تحقيق الآيتين أن المنافقين كما أرادو أن يجمعوا بين عشرة الكفار و صبة المسلمين وأن يجمعوا بين مفاسد الكفر ومصالح الإيمان، فكان الجمع بين الضدين غير جائز، فبقوا بين الباب والدار كقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هٰؤُلَاءِ﴾ (النساء: ١٤٣)، وكذلك حال المتمنين الذين يدعون الإرادة ولا يخرجون عند العادة ويريدون الجمع بين مقاصد الدارين يتمنون ألى مراتب الدين، ويرتعون في أسفل مراتب الدنيا فلا يلتام لهم ذلك والمكاتب مابقي عليه درهم واذا أقبل الليل من حيث أدبر النهار من هاهنا وقال النبيّ: "لَيْسَ الدِيْنُ بِالتَمَنِي" (٩) وقال: "بُعِثْتُ لِرفعَ العَاداتِ وَدفعِ الشَهْوَاتِ" (١٠)، وقال: "الدُنيا وَالآخِرةُ ضرَّتانِ فَمَنْ يُدع الجمعُ بِيْنَهُما فَمَمكُور وَمَغرُور" (١١)، ومن يدّعي الجمع بينهما فمغرور، ومن كان له في كل ناحية خليط وفي كل زاوية من قلبه ربيط كان نهبا للطوارق ينتابه كل قوم و ينزل في قلبهكل رفقة فقلبه أبداً خراب إلا أنه لا يعبس وتتغير أسارير وجهه ولا يتطرق إلى مزاجه طيش فيخرج عن حد الاعتدال۔

وهكذا يتناول أقوال المشايخ من كبار الصوفية وأعلامهم وأشعار شعراء العرب في تفسيره، يعتمد الشيخعلى استنبطان النص من حيث هو خطاب أيضاء للعارفين الذين يحدون وراء كل لفظ من ألفاظه دلالة خفية يحدها العارف بالذوق والإشارة۔

السمات البارزة لتفسير بحر الحقائق من حيث أسلوب

والمعالجة المتكاملة الثلاثية الأبعاد

أسلوب بحر الحقائق ---

إن أسلوب تفسير بحر الحقائق أسلوب شمولي ثلاثي الأبعاد بمعنى أنه يشتمل على ثلاثة أساليب وهي الأسلوب العلمي والأسلوب العرفاني والأسلوب الرمزي - الإشاري- وما إلى ذلك قد"إنطلق" فيه المؤلف، كما يتضح من تسمية تفسيره بـ(بحر الحقائق)،من ظاهر الكلمات والعبارات الوجودية(existentil realities)-

لقد قسّم الفيلسوف الألماني عما نويل كانت(Kant) الوجود(existence)إلى قسمين هما(الف) القسم بمعنى الظواهر(phenomena)وهي ما يظهر للحواس من الأشياء،و(ب) القسم بمعنى البواطن (numina)و هي الأشياء كما هي (thing in themselves)- لقد ذهب عما نويل كانت إلى القول بأن الإنسان لا يمكنه الأشياء كما هي أي ماهية الأشياء إلّا ظواهرها المحسوسة في الزمان والمكان-

واشتهر هذا المذهب الفكري عند الفلاسفة باسم الظواهريّة أو علم الظواهر (phenomenology) وعلى هذا الأساس أنكر عما نويل كانت علم ماوراء الطبيعة (metaphysic)والذي تناوله الفيلسوف الأماني الآخر هيغل(Hegel) بالنقد اللّاذع، لا سيّما في كتابه "علم ظواهر الروح" (phenomenology of spirit).

إن هذا المذهب الفلسفي الظواهري يتنافي مع روح القرآن الكريم الذي يدعو الإنسان كرّةً بعد مرّةٍ إلى آياته الكون(cosmos) بالتدبّر و التفكر والتعقّل وإلى سبر أغوار الأشياء،كما يُعلّمنا النبيّ بكونه يدعو الله :" اللّهُمَ أَرِنَا الْأَ شيَاءَ كَمَا هِيَ "-(١٢)

لقد بَنَى صاحب تفسير بحر الحقائق تفسيره على هذا التعليم النبوي من إلتماس" حقائق الأشياء" بعكس التمسك بظواهرها-بناءً على ذلك هو تَبَنّى في تفسيره أسلوب (التحقيق) بدلاً من أسلوب (التقليد)، كما هو يقسّم الإيمان إلى قسمين:الإيمان بالتحقيق والإيمان بالتقليد-

هو يعرّف الإيمان الحقيقي بأنه "نُور إذا دخل القلب فيظهر على المؤمن حقيقة "، وذلك بالإشارة إلى ما جرى بـ(حارثة) من قصة إذ سأله النبيّ :" كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ ؟ " قَالَ:أَصْبَحْتُ مُؤمِناً حَقّاً، قَالَ:"انْظُر مَا تَقُولُ إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً،فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟" قَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنيَا، وَ كَأَنِّي أَنظُرُ إِلى عَرشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي

أَنظُرُ إِلى أَهلِ الجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا،و كَأَنِّي أَنظُرُ إِلى أَهلِ النَّارِ يَتَضَاغَونَ فِيها، قَالَ:" يَا حَارِثَةُ، عَرَفْت فَالْزَمْ " (١٣)۔

إن تفسير بحر الحقائق يركزّ على مُرَبّع ذات الله سبحانه وتعالى والنفس البشرية والكون (universe) والسلوك الخُلُقي المبني على معرفة الله ذاتاً وصفاتاً ومعرفة الكون مع التدبّر والتفكّر في خلق الله وتزكية النفس وتربيتها ۔وإن التفسير الرُباعي الأبعاد بهذا الصفة قد يدخل في مضمار ما يسمّى حديثاً بالأسلوب الأنتولوجي(ontological stlye).

هناك مذهب من مذاهب علم النفس (psychology)يسمّى في اصلاح علماء النفس علم النفس الكُلي أو سيكولوجيا الكُلّ (gestalt psychology)الذي يعرّفه منير البعلبكي بأنه "دراسة الإدراك والسلوك من زاوية اتسحابة الكائن الحيّ لِوحدات أو صُوَر متكاملة مع التأكيد على تطابق الأحداث السيكولوجية،ورفض تحليل المنبهات (stimuli) والمدركات (sense data)والإستجابات (responses)إلى عناصر متناثرة (١٤)۔

إن تفسير بحر الحقائق قد ذهب فيه صاحبه إلى تَنبي هذا الأسلوب الكُلّي الشمولي بمعنى إعتبار الآيات القرآنية وَحدة صُوَرِيّة ومعنوية أي من ناحية الشكل (form) والمحتوى (content)وإعتبار أفراد النوعي البشري وحدة إنسانية وإعتبار ظواهر الكون (universe) والطبيعة (nature)وحدة تكوينية ثمّ إعتبار هذه الوحدات الثلاثية وحدة وجودية متكاملة متجانسة بمعنى كونِهنّ عبارة عن "شجرة الكون"على حدّ تعبير إبن عربي۔

ثمّ يصرح صاحب تفسير بحر الحقائق بأن هناك الظاهرة والباطن في آيات (القرآن الحكيم) التي يدرك معانيها الناس على قدر عقولهم، لا سيّما فيما يتعلق بالمحكمات والمتشابهات من آيات القرآن ۔ التقسيم الثنوي الذي يصرح القرآن الحكيم نفسه ، كما يصرح بأن ما تشابه من آيات هو ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[آل عمران:٧]۔

يُحذّر المؤلف قد يظنه بأن تحقيقاته تدل "على إبطال ما هو المفهوم من ظاهر الآية وإبطال ما فسّر به العلماء والكبراء من المعاني الظاهرة حاشا وكلّا "۔وذلك بالإشارة إلى ما قال النبيّ :"إِنَّ لِلْقُرآنِ ظَهَراً وَبَطْنًا" (١٥)۔ فظاهره يدل على ما ذهب إليه العلماء في تفسير هم، وأما ما باطنه فيدلّ على ماذهب إليه أهل التحقيق في تحقيقاتهم مذهباً مشروطاً بالتوافق والتطابق مع (الكتاب والسنة) الشاهدين عليه بالحق وإلا فكل"حقيقة" غير مستنده إلى هذين الأصلين من الشريعة فهي إلحاد وزندقة (١٦) ۔

ما يستفاد من دراسة تفسير بحرالحقائق هو إن القرآن الحكيم بمنزلة كتاب النظرية الإلهية (Manual

of Divine Theory) الذي يقتضي ويتطلب تصديقه على أساس العملية المختبرية من التجربة / الإختبار (Experimentation) والمشاهدة (Observatiion) ـ العملية التجربية (Empirical process) التي تكون عند صاحب تفسير بحر الحقائق ، عبارة عن الإيمان بالغيب،وهي نُكتة تفسيرية عجيبة وغريبة خاصة بأسلوب تفسيره يأتي شرحها في الفصل الثاني (من هذا الباب) من ضمن مباحثة ـ

التفسير العلمي والمعرفي /العرفاني والرمزي ـ الإشاري المستفاد منه النُكت العلمية والعرفانية ونظرية (العلم والمعرفة) الشمولية

إن أسلوب تفسير بحرالحقائق متميز بكونه جامعاً بين أساليب أي أسلوب علمي، وأسلوب عرفاني،و أسلوب إشاري/ رمزي كما ذهب إليه نخبة من الصوفية ـ

أما الأسلوب العلمي فيتبع فيه صاحب تفسير بحر الحقائق ما يستلزم من شروط التفسير العلمي كتفسير ظاهر اللفظ في سياقه في ضوء علم النحو وعلم المعاني(Semantic)،وإن هذا الأسلوب التفسيري الثلاثي الأبعاد يسري في جميع تفسيره، لا سيما في تفسير سورة الفاتحة وسورة البقرة، الذي نحن بصدد البحث العلمي والنقدي فيه ـ كذلك هو لم ترك ما ذكر آنفاً من الحديث النبوي إلا وهو شرحه مزيداً بالإشارة إلى الحديث النبوي الآخر يقول فيه النبيؐ :" مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللّٰهِ شِبْراً تَقَرَّبَ اللّٰهُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعاً "(١٧) الذي يشرح في ضوئه صاحب تفسير بحر الحقائق (الإخلاص) بالإشارة إلى مفهومه التطبيقي (pragmatic concept) ويقول إن (الإخلاص) عبارة عن تخلّص العبد من رق عبودية الغير مما سوى الله بإخراجه من ظلمات متراكمة من هوى النفس وتعلق الروح والقلب بغير الحق إلى نور الوحدانية وشهود الفردانية (١٨) ـ

وكذلك عند ما يورد صاحب تفسير بحر الحقائق الآيات القرآنية من سورة البقرة:[الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ]، فإنه يقوم بإيجاد نُكت عجيبة وغريبة خاصة بنظرية المعروفة الماورائية (Metaphysicsl epistemology) ما يدل على الإتجاه العلمي لأسلوب تفسيره القرآني، وكما إستفاد مما روي في الأخبار: "أن جبريلؑ لما نزل بقوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ [مريم:١]، فلما قال :"كاف" قال النبيؐ علمت ،فقال:"ها" فقال:علمت، فقال:"عين" فقال:علمت،فقال:"صاد" فقال:علمت،فقال:جبريل كيف علمت مالم أعلم" (١٩) ،وهو يفيد بإيراد هذا الخبر أن الحروف المقطعات والآيات المتشابهات التي يعسُر ويصعُب أو يتعذر فهمها على غير الراسخين في العلم هي واضحة جلياً ومعلومة تماماً لدى النبيؐ ـ

(ب)الأسلوب الرمزي/ الإشاري:إن مؤلف تفسير بحر الحقائق كما يمشي مع طبيعة تسمية تفسيره ببحر

الحقائق قد ذهب في تفسيره القرآني مذهب التفسير الرمزي والإشاري على نحو عجيب وغريب لا يدل فقط على خصوبة ذهنه من ناحية المَلَكات الخارقة العادة من التفكير والتخيّل والوجدان الحدَسي والوهم والتحليل العلمي ، بل يؤدي به إلى إثارة هذه المَلَكات في القارئ ـ الظاهرة التي تظهر في قِمتها وذروتها في تفسير العبارات القرآنية تفسيراً رمزياً وإشارياً كما يتضح مما يلي من الملاحظات الإجمالية :

ومن هذه الناحية فإن تفسير بحرالحقائق ليس تفسيرا أحادى الجانب، بل هو تفسير شمولي وجامع، و في ذلك هو سبق غيره من التفاسير السابقة والمعاصرة واللاحقة إلى أسلوب المعالجة المتكاملة (interdisciplinary method) الذي قد أصبح متداولاً في منهجية البحث العلمي الحديث، ومن خصائص هذه المنهجية أنها تفرض على الباحث أن لا يقتصر على الدارسة في مجال واحد، بل يتخطّى ويتعدّى إلى أن يقوم بالدارسة في المجالات المختلفة والميادين المتنوعة على نحو أن تصبح الدارسة عنده دراسة مقارنة ومفارقة (Comparative and contrastive study) وإن هذه الميزة من أهم ميزات تفسير بحر الحقائق فهو في ذلك تفسير منفرد وحيد من نوعه.

من المناسب أن يُلقى الضوء على كل من هذه الأساليب الثلاثة أي الأسلوب العلمي، والأسلوب العرفاني،والأسلوب الإشاري/ الرمزي،وذلك بما يلزم من الشرح الإجمالي كما يلي:

(الف) الأسلوب العلمي:إن المراد بالأسلوب العلمي هنا ما ذهب إليه المؤلف وبنى عليه من نظرية المعرفة (epistemology)المستفاد من منهاج الوحي القرآني ـ المنهج الإستقرائي (inductive method) المبني على المبدأين : المشاهدة(observation) والتجربة/ الإختبار (experimentation) مثلاً إن صاحب تفسير بحرالحقائق يعرّف (الإنسان) بأنه نفس وقلب وروح وسرّ.

ثم هو يعرّف (النفس)بأنها دنياوية بمعنى أنها تهوي الدنيا ومافيها من اللذات والشهوات والزخارف،و يعرّف (القلب) بأنه أخروي بمعنى أنه يهوي الجنة وما فيها من النعيم،ويعرّف (الروح) بأنه قربي بمعنى أنه يحب القربة والعندية والدنو من مصدره أي(مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)،ويعرّف (السرّ) بأنه سرّ "حضرتي" بمعنى أنه يحب حضرة الربوبية، وهي مرتبة (الإخلاص) الذي يشرحه النبيّ بأنه سرّ بين اللّٰه وبين عبده لا يسعه فيه مَلك مقرب ولا نبي مرسل .وهكذا يشرح كل مصطلح من المصطلحات القرآنية بما ورد في القرآن من مصطلحات أخرى.

لقد فسرّ صاحب (تفسير بحر الحقائق) العبارات القرآنية (١) ﴿لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ (طٰهٰ: ١٠) (٢) ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ (طٰهٰ: ١٠)، (٣) ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (طٰهٰ: ١٠)، (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن

شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ) (القصص: ٣٠)، (٤) ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ (القصص: ٣٠)، (٥) ﴿أَنْ يَا مُوسَى﴾ (القصص: ٣٠)، بما يلي من العبارات على الترتيب: (١) الروح والجسم، (٢) حضائر القدس، (٣) القلب، (٤) السرّ، (٥) المحب المشتاق۔

لقد جمع المؤلف في تفسيره بين التفسير الرمزي، الإشاري والتحليل اللغوي على نحو يدل به على نُكت علمية و عرفانية عجيبة وغريبة، مثلاً في تفسير الآية القرآنية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (الضحى:٧)، هو يأخذ كلمة الضال بمعنى الذي كان ضالاً في تيه العدم قبل وجوده۔

وإن الضلالة في هذا السياق من الآية لايعني الضلالة بمعنى الإنحراف عن جادة الحق أوِ الصراط المستقيم، بل بمعنى غياب الشيء أثناء مرحلة من مراحل وجوده في غياهب جُبّ العدم، وذلك يعنى غيابه عن مسرح الشهود خلف ستار العدم، وهو يستدل على هذا المعنى العميق والدقيق بملاحظة لغوية لقول قائل: "ضل الماء في البن" أي غاب الماء فيه، وإن الهداية في هذا السياق من الآية إخراج الشيء من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وبصدد هذا الإفادة المعنوية أشار المؤلف إلى حديث النبيّ: "إِن اللّٰهَ خَلق الْخَلق فِي ظُلمَة ثُمَّ رشَ عَلَيْهِمْ مِنْ نُوره فَمن أَصَابَهُ مِن ذَلِك النُّور اهْتَدَى وَمَنْ أخطأهُ ضَل" (٢٠)، ونتيجة لهذاالرشّ النوري على الخلق المحجوب بحجابات الظلمة خراجوا إلى نور الشهود فإن الضلالة في هذا السياق من الآية، كما سبق القول، لا تغنى إلا بقاء الشيء في كتم ظلمة حجاب العدم۔

و على هذا الأساس فإن كلمتي (الهداية) و (الضلالة) ظاهر تان عمليتان من السير الوجودي والشهودي، وبذلك هما متعلقتان بقضية إنسانية حتمية من الفناء والبقاء۔ فإن الضلالة في هذا المسيرة الوجودية بمرحلة الفناء، بينما الهداية فيها تتعلق بمنزلة البقاء، نظراً إلى هذا التفسير فإن الضلالة والهداية من أهم المصطلاحات الوجودية القرآنية۔

ومما يهم من ناحة نظرية العلم (epistemology) أن مؤلف بحر الحقائق بصدد تفسير الآية: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ۔۔۔﴾ (البقرة:٣)، يقسم الهداية إلى ثلاثة أقسام: الهداية العامة، والهداية الخاصة، والهداية المتعلقة بأخص الخواص۔

فإن الهداية العامة ما يخصُّ هداية عامة الناس بالإسلام والإيمان، وإن الهداية الخاصة ما يخصُّ هداية خاصة الناس بالإيقان والإحسان، وأما الهداية المتعلقة بأخص الخواص من الناس فهي مايتم (كشف الحجب والمشاهدة العيان) بدف إتقاء المهتدي عن نفسه بربه۔

هو يمضي في تفسير هذه الآية من هذه الوجهة المعرفية، و يعرف (الغيب) بأنه: نور غيبي من اللّٰه في

قلوب المستمعين نظروا إلى قول محمدٌ فآمنوا به كمال قال: "اَلْمُؤْمِنِ يَنْظُرُ بِنُوْرِ اللّٰهِ" (٢١)۔

هو يقسم الغيب إلى غيبين هما: (١) غيب غاب من العبد، و (ب) غيب غاب العبد عنه، فالذي غاب عنه هو "عالم الأرواح" الذى كان حاضرا له حينما كان موجودا فيه بروحه و كذرة وجوده في عهد (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)۔

وقد أشاره المؤلف هُنا إلى نُكتة مهمة جداً، وهي نكتة علمية لاتخفى أهميتها على المتخصصين في العلم، لا سيما علم الوراثة (Genetics)، وذلك بذكر ذرة الوجود الإنساني في عهد (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)، وإن هذاه الذرّة هي بمنزلة DNA (Deoxyribonucleic Acid)، و هي سلالة من الحامض الخلوي الأكسيجوني، الكار بوني يحمل كل ما ينطوي عليه من الشخص البشري من الموروث من بداية خلقه إلى نهاية مرحلة أطواره وأدواره، النُكتة التي قَلّما قد ينتبه إليها دارس تفسير بحر الحقائق، وأغرب من ذلك ما يقول المؤلف بصدد الحديث في شرح هذه النكتة أن العبد عند ما إستمع الخطاب الرباني الذي رَنَّ في قبة عالم الأرواح طَالَعَ آثَار الربوبية وشاهد الملائكة وتعرف على أرواح الأنبياء والأولياء، فغاب ذلك المشهد عنه عند تعلقه بعالم (القالَب)، ونظر بالحواس الخمسة إلى المحسوسات من عالم الأجسام۔

معنى ذلك أن المشهد الذي كان ماثلاً وحاضراً وموجوداً أمامه في عالم الأرواح، غاب عنه بعد ما نزل إلى عالم الأجسام، فكل ما كان عالما و عارفا به أصبح جاهلاً عنه ولذلك سُمِّيَ الإنسان لأنه نَسِيَ عهد (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) كما يقول اللّٰه سبحانه و تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْلَهُ عَزْماً﴾ (طٰهٰ:١١٥)، ولذلك لقد عرف اللّٰه تعالىٰ القرآن الحكيم بانه: ذكر و تذكرة و تبصرة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ﴾(ق:٣٧)، كما عرف رسولهٗ بأنه: "مُذكِر" لاسيمافي الآية المباركة: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرِىٰ﴾ (الأعلى:٩) وأيضاء في الآيتين: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (الغاشية:٢١) و ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:٢٢)

وأما الغيب الذي غاب عنه الإنسان فهو (غيب الغيب، و هو حضرةالربوبية التي قد غاب عنها العبد من وجودها وتواجدها معه أينما كان وفي كل زمان و مكان، كما يقول اللّٰه سبحانه و تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد:٤) ، وأيضاً: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيْدِ﴾ (ق:١٦)۔ وكذلك يشير المؤلف إلى أن للإيمان مراتب، فإن المرتبة الأولى: تصديق القلب بحقائق الغيب بلا ريب على ما روى علي ابن أبي طالب كرم اللّٰه وجه قال: قال رسول اللّٰهِ: "اَلْإِيْمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ"۔ (٢٢)، فإن ذلك تصديق للإيمان فمُهِم جداً من حاية نظرية المعرفة (epistemology) و فلسفة المذهب العملي (pragmatics) و علم النفس اللغوي (psycho-linguistics)، وهناك حديث من هذا القبيل من العجائب والغرائب رواه أيضاً

الإمـام عـلـي ابـن أبـي طالـب كرم اللّٰه وجهه قال: قال رسو اللّٰه: "الإيمَانُ قَول مَقُول وَعَمل مَعْمُول وعِرفَانُ بالعُقول وَإتبـاعُ الرَسُول" (٢٣)۔ و في ضوء هذا الحديث الدقيق المعنى والعميق المغزى والبعيد المرمى واللطيف الفحوى فإن الإيمان رباعي الأبعاد بمعنى أنه قول و فعل و معرفة وإتباع الرسولؐ۔

والـمـرتبة الثـانية مـن الإيـمان فهي عبارة عن الإيمان بغيب الغيب، والذى ينقسم بدوره إلى مرتبتين هما:

(١) تـخـلـص القلب بالنُّور الغيبى الرباني عن العلائق الجسمانية والحجب النفسانية والصفات الحيوانية، ففي هذه المرتبة الثانية يهتدي العبد إلى عالم الأرواح كما كان في أول الهد ويوم الميثاق۔

ونتـيـجةً لـذلك الإهتـداء وتـلك الـعودة إلى الإصل فإانه لا يبقى الغيب الروحاني عنده غيباً ويصير حضورا وشهـودا لإرتـفـاع الـحـجب من أمامه كما يشير المؤلف إلى قول اللّٰه تعالى في الآية: ﴿وَ مَنْ يُؤْمِن بِاللّٰهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التـغـابـن:١١) أي مـن يؤمن بنور اللّٰه يهتد إلى اللّٰه فيشاهد بقلبه ما كان يشاهد بروحه في عالم الأرواح وما كانت (الذرة) تشاهد يوم الميثاق، فيسمع من خطاب الربّ ما كانب (الذرة) تسمع، و يتنور بنورٍ تنورّت الذرة به، و يتنسّم من "نفحات ألطاف الحق" ما كانت (الذرة) تنَسَّمت به منها۔

بناءً على كل هذا المقدمات فإان الإيمان الغيبى، كما يستطرد المؤلف قائلاً، يصير عيناً إلى أن يكتب اللّٰه تـعـالـىٰ (الإيـمـان) في قلبه بنور (غيب الغيب) حسبما قال اللّٰه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة:٢٢)۔

(ب) وأما المرتبة الثانية الفرعية فهي عبارة عن الإيمان بالغيب الذي هوية ذات اللّٰه سبحانه و تعالى بمعنى حـقـيـقـة التي مرتبة (غيب الغيب) لا يعلمها إلا اللّٰه، يقول المؤلف مستطرداً إنه لايتم الإيمان بهذه المرتبه من (غيب الـغـيـب) إلا بـقـدر غيبـوبة أنـانية الـعبـد بمشاهدة الغيب وبعبارة أخرى إن غيبوبة الأنانية بمعنى إزالة حجاب كثافة الـصفات البشرية الحيوانية شرط ضرورى لحصول (الإيمان بالغيب) بمعنى مشاهدة هوية ذات اللّٰه سبحانه و تعالى و حقيقتها۔

إن الـغيب، كما يعرفه صاحب تفسير بحر الحقائق، مالا يدركه العبد بحواسه الخمس الظاهرة ،بل يدركه الـخـمس الباطنة و هي: العقل والقلب والسرّ والروح الخفي۔ الموقف الإستقرائي الماورائي الذي يستفاد منه نظرية العلم الماوراء الطبيعى (Espstemology metaphysical) يستـدل عليها المؤلف بالآية القرانية: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَـادَةِ﴾ (التـوبة:٩٤)، حيث تكون (الشهادة) التي عبارة عما يدركه الإنسان بحواسه الخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس۔

خلاصة البحث:

نستخلص مما سبق من البحث من حصيلته أن تفسير بحر الحقائق قد تبنّى فيه مؤلفه أسلوباً علمياً متميزاً مبنياً على الجمع بين العلم والمعرفة والإستقراء الجامع بينهما والمستفاد منه نظرية (العلم) الشمولية الإستقرانية والماورانية التي تجري روحها في جميع تفسيره من بداية إلى النهاية، و هذه الميزة التي قلّما توجد في غيره من التفاسير۔

الهوامش

١۔ كحاله، عمر رضا، معجم المؤلفين: ١٢٢/٦، دار احياء التراث العربي بيروت لبنان۔

٢۔ معجم تفاسير القرآن الكريم، أعده مجموعة من الباحثين: ٣١٣، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو ١٤١٧هـ /١٩٩٧م۔

٣۔ المصدر نفسه: ٣١٣،

الموقع: http://alsalhen.zaghost.info D 28-10-10

٤۔ البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين: ٤٦١/٥، دارا لكتب العلمية بيروت لبنان، الزركلي، خير الدين، الأعلام: ١٢٥/٤، دارلعلم للملايين بيروت لبنان، معجم المؤلفين: ١٢٢/٦، المصدر السابق۔

٥۔ المصدر نفسه: ٣١٣، ۔

الموقع: http://alsalhen.zaghost.info D 28-10-10

٦۔ حاجي خليفه، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: ١٨٢٣/٢، دارالفكر بيروت لبنان ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م۔

٧۔ كشف الظنون: ١٦٥٥/٢، المصدر السابق۔

٨۔ أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" برقم:٣٣٦٧ عن حارث بن مالك، تحقيق:حمدي بن عبدالمجيد السلفي،مكتبة ابن تيمية القاهرة،ط:٢۔، والبيهقي في "شعب الإيمان" برقم:١٠١٠٦ عن حارث بن مالك، تحقيق: عبدالعلي عبدالحميد،الدكتور،مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، ط:١۔ ١٤٢٣ هـ۔

٩۔ حقي، إسماعيل بن مصطفى الإستانبولي:أبو الفداء،روح البيان: ٦٣/١، دار الفكر بيروت،السمعاني،منصور بن محمد بن عبدالجبار المروزي،أبو المظفر ،تفسير القرآن للسمعاني: ٤٨٢/١،دار الوطن الرياض السعودية، ط:١۔ ١٤١٨ هـ ۔

١٠۔ روح البيان: ٦٣/١،المصدر السابق، النسيابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي،تفسير النسيابوري غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٤٩٢/١، دار الكتب العلمية بيروت، ط:١۔ ١٤١٦ هـ ۔

١١۔ روح البيان: ٦٣/١، المصدر السابق ۔

١٢۔ الرازي،محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين،تفسير الرازي مفاتيح الغيب: ٣٧/١٣،دار إحياء التراث العربي بيروت،ط:٣۔ ١٤٢٠ هـ، روح البيان: ٨٥/١، المصدر السابق۔

١٣۔ قد سبق تخريجه برقم:٨ ۔

١٤۔ البعلبكي،منير البعلبكي:قاموس المورد:٣٨٦،دارالعلم للملايين بيروت، ١٩٧٨۔

١٥۔ روح البيان:٢٨٩/١،المصدر السابق،الغزالي،محمد،أبو حامد،إحياء علوم الدين: ٦١/٢،دار المعرفة بيروت۔

١٦۔ مخطوط بحرالحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني،ص:٣١ ۔

١٧۔ أخرجه البخاري في "الصحيح"برقم:٧٥٣٦ عن أنسؓ،تحقيق: الناصر، محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة،ط :١۔ ١٤٢٢هـ ،والمسلم في "الصحيح" برقم: ٢٠۔(٢٦٧٥)عن أنسؓ،تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت۔

١٨۔ مخطوطة بحر الحقائق والمعاني في تتفسير السبع المثاني،ص:٦۔

١٩۔ تفسير روح البيان:٢٨/١،المصدر السابق۔

٢٠۔ تفسير الرازي:٤٧٩/١٢،المصدر السابق،تفسير روح البيان:٢٣/١، المصدر السابق۔

٢١۔ أخرجه الترمذي في "السنن" برقم:١٣٢٧ عن أبي سعيد الخدري،تحقيق: أحمد محمد شاكر،محمد فؤاد عبدالباقي ،شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر،ط:٢۔ ١٣٩٥هـ ۔

٢٢۔ أخرجه ابن ماجه في "السنن"برقم:٦٥ عن علي ابن أبي طالب،تحقيق: محمد محيي الدين ،المكتبة العصرية صيدا بيروت،والبيهقي في "شعب الايمان" برقم:١٦عن علي ابن أبي طالب ،المصدر السابق ۔

٢٣۔ الثعلبي،أحمد بن محمد بن ابراهيم ،أبو اسحاق،الكشف والبيان عن تفسير القرآن :١٤٧/١،تحقيق:أبي محمد بن عاشور دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط: ١۔ ١٤٢٢هـ ۔